جامعة الجيلالي بونعامة – خميس مليانة

كلية العلوم الانسانية والاجتماعية

قسم التاريخ

التواصل الحضاري بين الجزائر وإفريقيا جنوب الصحراء خلال العصور الوسطى والحديثة

محاضرات موجهة لطلبة السنة الأولى ماستر تاريخ الجزائر الحديث

تقديم الدكتور سليماني يوسف

الموسم الجامعي 2024/ 2025

المحاضرة الأولى

التعريف ببلاد جنوب الصحراء أو السودان الغربي:

أطلق العرب كلمة السودان على المنطقة الواقعة جنوب الصحراء الكبرى الأفريقية، وهو مستوحى عندهم من لون بشرتهم السوداء أو السمراء أحيانا والتي اسودت حسب الإدريسي نتيجة الحرارة الشديدة واحراق الشمس لهم، وعرف الاصطخري بلاد السودان بـ: "...وبلدان السودان بلدان عريضة ... وليسوا هم بنوبة ولا بحبشة ولا من البجة، إلا أنهم جنس على حدة أشد سوادا من الجميع واصفى،.... ويقال أنه ليس في إقليم السودان، وغيرهم إقليم هو أوسع منه".

يطلق الجغرافيون على المنطقة الممتدة من المحيط الأطلسي غربا إلى بحيرة تشاد شرقا، ومن الصحراء شمالا إلى القرب من خط الإستواء جنوبا (السودان الغربي)، وعرفت عند بعض المسلمين بـ بلاد التكرور، وهو الإسم الشائع في الحجاز ومصر، والحبشة.

وتضمّ بلاد السودان عموما ما يلي:

1- السودان الشرقي: مناطق النيل، وروافد جنوب بلاد النوبة.

2 - السودان الأوسط المناطق المحيطة ببحيرة تشاد.

3-السودان الغربي: حوض السنغال، وغامبيا، وفُولْتا، والنيجر الأوسط

ومن أهمّ ممالك السودان الإسلاميّة:

1-مملكة مالي ما بين القرن الثالث عشر والخامس عشر الميلادي
2- مملكة السنغاي بين القرنين الخامس عشر والسادس عشر
3- ممالك الهوسا (شمال نيجيريا) من القرن الخامس عشر حتى القرن التاسع عشر
4- الكانم والبرنو على ضفاف بحيرة تشاد. من القرن الرابع عشر حتى القرن التاسع عشر

ارتبطت منطقة السودان الغربي دوما بالشمال الإفريقي على مر التاريخ رغم أن بعض الباحثين يشككون في أي اتصال منظم بين ضفتي الصحراء قبل مجيئ العرب والمسلمين، لأنهم أول الشعوب التي استعملت الجمل كوسيلة لقطع الصحراء.

ونظرا لاتساع الصحراء وبعد المسافات بين ضفتيها كان وجود محطات بداخلها أمر ضروري، وهو ما جسدته المراكز الحضارية الصحراوية، ومن بينها توات التي كانت دوما رافدا أساسيا من روافد السودان الغربي تمده بما يحتاج إليه اقتصاديا وعلميا في عطاء

حضاري متبادل بحكم التجاوز الجغرافي، لم تستطع الصحراء رغم قسوتها واتساعها أن تحد منه.

ومع بداية انتشار الإسلام وتدفق القبائل العربية جنوبا توطدت أواصر تلك العلاقة، وازدادت متانتها، كل هذا لم يكن ليتم لولا وجود مراكز حضارية على ضفتي الصحراء وفي وسطها كما أسلفنا، مثلت همزة وصل ونقاط التقاء، كان لها الدور الفعال في الحركة العلمية والتبادل الثقافي بن بلاد الجزائر وبلاد جنوب الصحراء، ومن أبرز هذه المراكز الحضارية نذكر:

تمبوكتو: تقع مدينة تمبوكتو على الحافة الجنوبية للصحراء الكبرى على منحنى نهر النيجر الذي يبعد عنها في فصل الصيف ستة عشر ميلا، أما في فصل الخريف فيقترب ماء النهر منها ليصل قرية بكبر التي تبعد عنها سبعة أميال، تقدر المسافة بينها وبين ولاتة مسيرة خمسة عشر يوما، وبينها وبين توات تسعة وعشرون يوما.

تطورت المدينة وازدهرت عمارتها وقصدها الناس من مختلف الجهات، كمصر وفزان، غدامس، ورقلة، توات، درعة، تافيلالت وغيرها، كما أقيمت بها أسواق كبيرة جعلت منها مركزا تجاريا كبيرا وسط الصحراء.

بدأ نجم المدينة في الصعود خلال عهد مملكة مالي الإسلامية، ولفتت إليها الأنظار كمركز اشعاع علمي، خاصة في عهد الملك منسى موسى بعد رجوعه من رحلة الحج الشهيرة التي قام بها عام 1325م/ 724ه، وازدهر العلم والثقافة في المدينة مع توافد الطلبة والعلماء من شمال وغرب إفريقيا واستمر دورها في التعاظم ليبلغ أوجه أيام دولة السنغاي، زارها الرحالة الشهير حسن الوزان وقال عنها: "أن سكانها أغنياء مترفون، خاصة الأجانب المقيمين فيها، وبها عدد كبير من الفقهاء والعلماء"، ووصفها محمود كعت أيضا قائلا: "إنها مدينة لا نظير لها في البلدان من بلاد السودان إلى المغرب، وهي تحب الأجانب وتعطف عليهم خاصة من أهل العلم".

كانت تمبوكتو في بادئ الأمر عاصمة تجارية أكثر من أي شيء آخر، لكن مع مرور الوقت أضيفت لتلك المكانة أهمية أخرى حينما صارت حاضرة من حواضر العالم الإسلامي، وحظيت خلال القرن السادس عشر الميلادي بمكانة لم تصل إليها أي مدينة في غرب إفريقيا. وأصبحت تضاهي المدن الكبرى كفاس، ومكناس،، وتلمسان، والقاهرة، وبجاية، وغيرها من المدن الأخرى.

غاو: ورد ذكر المدينة في المصادر العربية القديمة بأسماء عدة منها كاغ، كوكو، كاغو، وتشير بعض المصادر التاريخية أن المدينة تأسست أواخر القرن الثاني الهجري، الثامن الميلادي، واستوطنها عناصر من البربر القادمين من شمال إفريقيا، دخل الإسلام إلى

المدينة حوالي 400ه / 1009م، لتعرف تطورا كبيرا مع مرور الوقت، زارها ابن بطوطة سنة 1353م /754ه وأقام بها نحو شهر قال عنها أنها مدينة كبيرة من أحسن مدن السودان وأكبرها، بها خيرات كثيرة، وقال عنها الإدريسي: أنها مدينة كبيرة مشهورة الذكر من بلاد السودان على ضفة نهر يخرج من ناحية الشمال يمر بها ومنه يشرب أهله" يقصد نهر النيجر.

كانت غاو عاصمة لمملكة السنغاي منذ أيام آل ضياء الأول، وبلغت المدينة في عهد الأسقيين أقصى ازدهارها، مع كثرة سكانها، حيث بلغ عدد منازلها 7626 منزلا خلال القرن السادس عشر، عُرفت المدينة بنشاطها التجاري خاصة تجارة الملح، وكانت القوافل التجارية تأتيها من الشمال والجنوب، مع وجود كبار التجار ورجال الدولة بها.

وعندما سقطت امبراطورية سنغاي تحت الاحتلال السعدي المغربي عام 1591، تدهورت أوضاع المدينة وهجرها سكانها وظهرت بها طبقة جديدة من المولودين المغاربة، ويعود اتصال المدينة بتوات إلى وقت مبكر بفعل تنقل التجار والعلماء بين المنطقتين، وكانت القوافل التجارية تنطلق من المدينة نحو توات عبر تمبوكتو التي شكلت حلقة الوصل بينهما، مما ساعد على وجود جالية كبيرة من التواتيين بالمدينة.

جيني: تعتبر مدينة جيني من الحواضر الإسلامية الهامة في بلاد السودان الغربي، وهي تقع جنوب مدينة تمبوكتو بحوالي مائتي ميل، على نهر باني رافد النيجر، وفي منطقة تشعب الروافد التي كانت تقدم للمدينة حماية طبيعية من جهة، وتسمح لمياه الفيضان أن تروي الحقول الملحقة بالبيوت بشكل منتظم، وبذلك تقع في سهل فسيح من المستنقعات[i]، وفي رواية أخرى ورد أنها تقع إلى الجنوب الغربي من تمبوكتو، وتبعد عنها بحوالي 700كم، وقد كانت في بدايتها بلدة صغيرة ظهرت في قلب داتا نهر النيجر على أنقاض إحدى مدن مملكة غانة.

يصفها الوزان بالقرية تشكل شبه جزيرة، وذلك لفيضان مصب نهر النيل يقصد مصب نهر السنغال، وربما يقصد مصب نهر النيجر الحقيقي الذي يصب في المحيط بمنطقة خليج غينيا، يسكنها الملك والأئمة والفقهاء والتجار والأعيان، ومساكنهم تشبه الأكواخ مملوطة بالطين ومغطاة بالتبن، ويرتدي سكانها لباسا حسنا، وذكر أن من عادة سكانها وضع اللثام من القطن الأزرق، ويتميز العلماء بوضع اللثام الأبيض، لعل عادة ارتداء اللثام نتيجة اختلاطهم بالبربر الطوارق الذين اشتهروا بوضع اللثام.

اختلف الباحثون حول من قام بتأسيس هذه المدينة، وكان هناك شبه اجماع على أن السوننك هم من أسسوها، واختلفوا أيضا في تاريخ تأسيسها، وتوصل البعض إلى أن أقدم تواجد بشري بها يعود إلى القرن الثالث قبل الميلاد، ومنذ القرن الأول للميلاد بدأت زراعة الأرز فيها.

ويذكر السعدي انها تأسست في أواسط القرن الثاني للهجرة، وتشير رواية تاريخية إلى أن تأسيسها كان بأمر من الرسول صلى الله عليه وسلم، وذلك اثناء معركة بدر، حيث جلب انتباه النبي 'ص' أحد المقاتلين المسلمين اسمه شماوروشي، الذي كان يقاتل ببسالة لا مثيل لها، وبعد المعركة استدعاه الرسول 'ص' وطلب منه: من أي قرية أنت؟ فأجاب المقاتل: أنا من نيونا (قرية صغيرة تقع بالقرب من جني في الجنوب الغربي) فقال الرسول 'ص' ارجع لبلدك وشيد مدينة كبرى التي ستكون تحت الجنة أو فوقها مركزا إسلاميا كبيرا، ويبدو أن جني أخذت اسمها من الجنة كما أشار المقاتل الإفريقي شماوروشي وحُرف اسمها إلى جُنة وأخيرا إلى جني.

حظيت جيني بأهمية اقتصادية كبيرة نظرا لموقعها المتميز كملتقى للقوافل التجارية التي تسير بين شمال الصحراء وجنوبها، حيث اشتهرت بتجارة الملح والذهب، لذلك وصفها عبد الرحمن السعدي قائلا: "وهي سوق عظيمة من أسواق المسلمين وفيها يلتقي أرباب الملح من معدن تغازا وأرباب الذهب من معدن بيط".

وبدأت تظهر أهمية جيني التجارية مع ازدهار تمبوكتو، حيث صارت مكانا لالتقاء التجار، وللتبادل التجاري بينهم، وأصبحت القوافل تحمل إليها البضائع من تمبوكتو باستمرار فتجد فيها رواجا، حيث أن تجار الجنوب يأتون جني ليأخذوا ما يحتاجونه من بضائع الشمال، كما يبادلونهم الذهب والعبيد وغيرها من البضائع الأخرى

وبمرور الوقت أصبح يقصدها كل التجار من مختلف الجهات وتتسع لكل الوافدين إليها، تتوفر فيها بضائع الشرق والغرب، ويصلها تجار ورجلان عن طريق تمبوكتو، بها سوق كبيرة تشتغل طيلة الأسبوع تتم فيها عملية التبادل التجاري، وتبرم فيها الصفقات بين التجار الوافدين إليها، وكانت التجارة تتم عن طريق المقايضة المنظمة، وكان هناك تكتل في رؤوس الأموال.

أحتلت جيني المرتبة الثانية من حيث الاهمية بعد تمبوكتو، فكان بها كثير من العلماء وطلاب العلم، لذلك كانت أهميتها تجبر السلاطين من الأساقي على احترامها، وكلما مرّ جيشهم بها فإنهم كانوا يلاقون قاضيها، ويقدمون له الهدايا، أو يساعدونه على بناء مأوى لطلاب العلم، أو بناء مسجد من المساجد.

أوران: هي تحريف لكلمة "أهاران إيوان" التي تعني بلغة "تماشك" اللغة المحلية للسكان "أرض الأبقار ذات الملوحة"، كانت في بدايتها عبارة عن آبار يفوق عددها الثلاثمئة ترحل إليها في الفصول الرطبة والباردة قبائل مقشرن الذين أسسو مديمة تمبوكتو، يقول عنها صاجب كتاب البسيط في اخبار شنقيط: "إنها قرية مشهورة بينها وبين تمبوكتو عشرة أيام واقعة في رمال، لا نبات لها ولا زرع والمطر بها قليل ..." أما سكانها فهم مجموعة من

قبائل أمشقران الذين أسسوا مدينة تمبوكتو، توافدت عليها عدة قبائل عربية أبرزها البرابيش بنو حسان.

يعود الفضل في تأسيسها حسب الروايات للشيخ أحمد آغ أدا الذي كان يبحث عن مكان تتوفر فيه الشروط لعبادة الله، وبعد تأسيس المدينة انطلق الشيخ في نشاطه من أجل نشر الإسلام، وتعليم أبناء المسلمين مما جعل من هذه القرية الصغيرة خلال بضع سنوات مركز تجاري وعلمي كبير، وملتقى للقوافل التجارية من كل الأطراف.

برزت المدينة كمركز اشعاع علمي وثقافي في عهد مؤسسها، وتحول مسجدها إلى جامعة تخرج منها عدد من العلماء الذين ذاع صيتهم، وضاهى مسجد سنكوري في تمبوكتو، وكانت المدينة محطة للحجاج القادمين من الغرب (منطقة الحوض والساحل) والقادمين من الجنوب (تمبوكتو وماسينا) ومنها ينتقلون إلى توات اثناء توجههم إلى الديار المقدسة، مما أعطى علماء المدينة فرصة أثناء وجود هؤلاء الأشخاص لشراء مخطوطاتهم أو استنساخها